أبو الفتح بن جني

وأثره في اللغة العربية

عصره ، مكانته العلمية ، آثاره

-٧-

آراء ابن جني في العربية

نظرياته الخاصة ومذاهبه التي انفرد بها

أحب الامام أبو الفتح بن جني اللغة العربية وأغرم بها حباً وغراماً عجيبين ولا غرو فان ذلك الامام المصنف المرهف الحس الذي آتاه الله عقلاً كبيراً ، وعلماً واسعاً ، وملكة عجيبة قد اطلع على أسرار هذه اللغة العربية الشريفة فأحبها الى درجة التدله بها وبأسرارها ، وصنف الكتب في تبيين غرائبها وكوامن دررها ، وتعداد فضائلها ، يقول في مقدمة كتابه النفيس (الخصائص) وهو يهدي الكتاب الى الأمير بهاء الدولة بن بويه : «هذا أطال الله بقاء مولانا الملك السيد المنصور بهاء الدولة ... كتاب لم أزل على فارط الحال وتقادم الوقت ملاحظاً له عاكفاً الفكر عليه ، منجذب الرأي والرواية اليه ، وادا أن أجد مهملاً أصله به ، وخللاً أرتقه بعمله ... هذا مع إعظامي له واعتصامي بالأسباب المنتاطة به واعتقادي فيه انه من أشرف ما صنف فى علم العرب ، وأذهبه في طريق القياس والنظر ... وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ، ونيطت به من علائق الاتقان والصنعة» [1] .

---

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١/٢ ، ٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويقول أيضاً: «هذا أمر قدمناه امام القول على الفرق بين (الكلام) و (القول) ليرى منه غور هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، ويعجب من وسيع مذاهبها، وبديع ما أمد به واضعها ومبتدئها»[١]. ويقول أيضاً: «اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك عليّ جوانبَ الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر»[٢].

وابن جني من شدة إعجابه باللغة العربية، والقرآن الكريم، والشعر العربي والأحاديث النبوية يكاد يؤمن بأن هذه اللغة لغة تسحر من يتعمق في دراستها، وتفهم أسرارها، وإعجاز مبانيها حتى يقول: «وكلام العرب لمن عرفه وتدرب بطريقتها فيه جار مجرى السحر لطفاً وإن جسا (أي جفا) عنه أكثر من ترى وجفا...»[٣].

فأنت ترى من هذا القول ومما سلف من أقواله قدر الدرجة السامية التي وصلت اليها اللغة العربية في قلبه. ولا ريب في أنه ما قال هذه الأقوال إلا بعد الفحص والتمحيص الدقيق، وإلاّ بعد أن قرأ وسمع وحفظ، ووسع عقله من علوم العرب والإسلام الشيء الكثير. فقد كان رحمه الله واسع المعرفة لا في علوم العربية من نحو وصرف وعروض وأدب وبيان وحسب بل في جميع مناحي العلم والمعرفة التي بلغها الناس في عصره؛ فهو من كبار علماء الكلام، وكثيراً ما كان يذكر أقوال علماء الكلام في كتبه ويناقشها ويرد عليها[٤]، وهو من علماء الفقه يذكر كثيراً من أقوال رجال هذا العلم ويناقشها، ولعله كان حنفي المذهب فقد كان ذا صلة شديدة بكبير فقهاء الحنفية في عصره وهو الامام ابو بكر احمد ابن علي الرازي الجصاص (- ٣٧٠)، وكان يناقشه ويذكر فضل شيخه أبي علي الفارسي

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ١٥
(٢) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٤٥
(٣) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٢١٢
(٤) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في حضرته [١] وهو ينقل بعض آراء أبي حنيفة النعمان في كتبه ويقيس عليها في العربية [١] .

وكان ابن جني من علماء بعض اللغات الأجنبية كالفارسية فقد ظهر ذلك مرات في كتبه ، ولا غرابة في ذلك فانه كان عالماً لغوياً يبحث في فقه اللغات وأحوالها ، وجدير بمثله أن يتقن بعض اللغات الأجنبية ليقيس عليها ويستشهد ببعض أحوالها وأوضاعها في القضايا اللغوية ، ثم ان كثرة مخالطته لشيخه الامام ابي علي الفارسي وهو من أرباب هذه اللغة وعلمائها ، تجعله يتعلمها ويتقنها ، وينقب عن الشواهد والمصطلحات التي تعينه في دراساته اللغوية فقد ذكر في (الخصائص) في فصل عنوانه (القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح) : إن العلماء قد انقسموا في هذا الأمر الى قسمين : قسم يرى انها إلهام من الله سبحانه ، وقسم يرى أن الناس اصطلحوا على ذلك ، وهو أميل الى القسم الثاني ، وأن اللغة تواضع واصطلاح لا وحي من الله ولا توقيف ، وقد أطنب في بيان ذلك والتدليل عليه ، ومما قال : « فكأنهم جاءوا الى واحد من بني آدم فأومأوا اليه وقالوا انسان انسان انسان فأي وقت سمع هذا اللفظ علم ان المراد به هذا الضرب من المخلوق . وإن ارادوا سمة (عينه) أو (يده) أشاروا الى ذلك وقالوا (يد ، عين ، رأس ، قدم) ونحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة من غير هذا عرف معنيها وهلم جرا ... ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة الى غيرها فتقول الذي اسمه انسان فليجعل مكانه (مَرْدْ) والذي اسمه رأس فليجعل مكانه (سَرْ) وعلى هذا بقية الكلام ... » [٢] . وكلمتا (مرد) و (سر) فارسيتان معنى الأولى رجل ومعنى الثانية رأس .

وله أقوال أخرى كثيرة في (الخصائص) و (سر الصناعة) تدل على معرفته باللغة الفارسية والشعر الفارسي وأوزان العروض وأصول تلك اللغة .

***

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٢١٠

(٢) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٤٢ – ٤٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكانت لأبي الفتح نظريات خاصة في اللغة والنحو والصرف انفرد بها ، واعتمد فيها على بحوثه الخاصة ومعارفه العامة وتوسّعه في مباحث فقه اللغات ، ولم يكن أبو الفتح ميالاً الى مذهب بعينه ، فانه لم يكن بصرياً ولا كوفياً ولا بغدادياً وانما كان صاحب طريقة منفردة خاصة به ؛

فمن ذلك قوله بالاشتقاق الأكبر: وقد عقد له باباً مطولاً في الخصائص ذكر فيه ان هذا البحث الذي لم يبحثه أحد قبله من أئمة النحو البصريين أو الكوفيين ، وان كان أستاذه ابو علي الفارسي قد ألم به بعض الالمام واستعان به وخلد اليه ولكنه لم يسمّه وانما كان يبحث في بعض مسائله عند الضرورة ، ولكن صاحبنا ابن جني نظم أموره وسماه حيث يقول في باب (الاشتقاق الأكبر) : « هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا غير أن ابا علي رحمه الله كان يستعين به ويخلد اليه مع اعواز الاشتقاق الأصغر لكنه مع هذا لم يسمه وانما كان يعتاده عند الضرورة ويستروح اليه ، ويتعلل به ، وانما هذا التلقيب لنا نحن ، وذلك ان الاشتقاق عندي على ضربين كبير وصغير فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم .. وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه وان تباعد شيء من ذلك رُدّ بلطف الصنعة والتأويل اليه كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد ... نحو : (ك ل م) و (ك م ل) و (م ك ل) و (م ل ك) و (ل ك م) و (ل م ك) ، وكذلك (ق و ل) و (ق ل و) و (و ق ل) و (و ل ق) و (ل ق و) (ل و ق) »[1] . وقد ذكر في صدر الكتاب أن هناك فرقاً واضحاً بين أصلي هاتين المادتين (قول) و (كلم) وان مادة (ق و ل) أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره انما هو للخفوف والحركة ،

---

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ ، ٥٢٥ - ٥٢٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وجهات تراكيبها الستة مستعملة كلها ، لم يهمل شيء منها ... وأما مادة (ك ل م) فهذه أيضاً حالها وذلك انها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة والمستعمل منها أصول خمسة والمهمل منها أصل واحد وهو (ل م ك) فلم تأت منه في ثبت .

ومن ذلك قوله بنظرية ترافع الأحكام : فقد عقد لها باباً خاصاً في الخصائص فقال : « باب في ترافع الأحكام ، وهذا موضع من العربية لطيف لم أر لأحد من أصحابنا فيه رسماً ولا نقلوا الينا فيه ذكراً ، ومن ذلك مذهب العرب في تكسير ما كان من (فَعَل) على (أفعال) نحو : عَلَم وأعلام ، وقَدَم وأقدام ... قال سيبويه فان كان على (فَعَلَة) كسّروه على (أفعُل) نحو : أكمة وآكُم ، ولأجل ذلك حمل (أمة) على انها (فَعَلَة) لقولهم في تكسيرها (آمٍ) الى هنا انتهى كلام سيبويه ، الا انه أرسله ولم يعلله ، والقول فيه عندي ان حركة العين قد عاقبت في بعض المواضع تاء التأنيث وذلك في الادواء نحو قولهم (رَمِثَ رَمَثاً) و (حَبِط حَبَطاً) و (حبِج حبَجاً) فاذا ألحقوا التاء أسكنوا العين فقالوا (حَقِل حَقْلَةً) و (مَغِلَ مَغْلَةً) فقد ترى الى معاقبة حركة العين تاء التأنيث ، ومن ذلك قولهم (جَفْنَة وجَفَنات) و (قَصْعَة وقَصَعات) لمّا حذفوا التاء حرّكوا العين فلما تعاقبت التاء وحركة العين جريا لذلك مجرى الضدّين المتعاقبين فلما اجتمعا في (فَعَلة) ترافعا أحكامها فأسقطت التاء حكم الحركة وأسقطت الحركة حكم التاء فآل الأمر الى أن صار كأنه (فَعْل)، و (فَعْل) باب تكسيره (أفعُل) وهذا حديث من هذه الصناعة غريب المأخذ لطيف المضطرب فتأمله فانه مُجدٍ عليك مقوٍ لنظرك[1] » .

فأنت ترى أن ابن جني في ملاحظته الدقيقة العجيبة هذه قد كشف عن سر من أسرار هذه اللغة لم يتنبه اليه احد من العلماء الكبار قبله ولا حوّم حوله

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٥٠٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحد بعده وهذا يؤيد ما قلناه عنه من رهافة الحس، ودقة النظر في البحث عن أسرار لغة القرآن وانتظام أحوالها اللغوية انتظاماً عجيباً يدهش كل من ينظر اليه .

ومن ذلك قوله بنظرية وضع أصول العربية : وحرصه على أن يكون لعلم النحو أصول مثل أصول الكلام وأصول الفقه، فقد كان ابن جني عالماً استقرائياً متتبعاً، ومنطقياً مدققاً، اطلع على أسرار العربية وخصائص نحوها فرأى أن العلماء الأقدمين أهملوا ناحية مهمة في التأليف وهي ناحية ايجاد فن من فنون العربية أطلق عليه فن أصول العربية و « ذلك انا لم نر أحداً من علماء البلدين - الكوفة والبصرة - تعرّض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه »[1] وان كتابي ابي الحسن الأخفش الذي سماه (المقاييس في النحو) وأبي بكر بن السراج الذي سماه (كتاب الأصول) لم يكونا في هذا الصدد على الرغم من أن ابا الحسن الأخفش « قد كان صنّف في شيء من المقاييس كتيباً اذا أنت قرنته بكتابنا - أي الخصائص - علمت بذلك انا نبنا عنه فيه وكفيناه كلفة التعب به وكافأناه على لطيف ما أولانا من علومه المسوقة الينا، المفيضة ماء البشر والبشاشة علينا، حتى دعا ذلك أقواماً نزرت من معرفة هذا العلم حظوظهم، وتأخرت عن إدراكه أقدامهم، الى الطعن عليه، والقدح في احتجاجاته وعلله »[1] فهو يقدّر عمل أبي الحسن حق قدره، ويحمل على أولئك العلماء الذين غمطوه حقه، ولم يعرفوا مبلغ الجهد الذي بذله، فابن جني عالم منصف نبيل، كريم الخلق، يعطي كل أحد من العلماء الذين سلفوه حقه، وابن جني حين يحاول ايجاد علم أصول العربية يريد أن يجعل ذلك العلم ذا قواعد ثابتة، منطقية تعتمد على الاستقراء والبحث، وان تكون علل تلك القواعد أشبه بعلل المتكلمين لا بعلل الفقهاء فان علل المتكلمين تحيل الى الحس ولا كذلك علل الفقهاء في زعمه حيث يقول « اعلم ان علل النحويين وأعني بذلك حذّاقهم المتقنين لا ألفافهم

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المستضعفين أقرب الى علل المتكلمين منها الى علل المتفقهين وذلك انهم يحيلون على الحس ويحتجون فيه بثقل الحال أو خفتها على النفس وليس كذلك علل الفقه وذلك أنها إنما هي اعلام وأمارات لوقوع الاحكام ووجوه الحكمة فيها خفية عنا »[1] . ونحن وان كنا لا نشاطره رأيه في أن علل الفقهاء هي كما وصف ، فاننا نذهب مذهبه في وجاهة علل المتكلمين ، ولا نرى ان ثمة فروقاً بين علل حذاق المتفقهين وحذاق المتكلمين وليس ههنا موضع المناقشة في ذلك وانما نريد أن نبين رأيه في وجوب إيجاد علم أصول العربية ، وقد كان رحمه الله مغرماً بذلك وقد كرر هذا القول مراراً في (الخصائص) و (سر الصناعة) فقال في بعض تلك المواضع : « واعلم انا مع ما شرحناه وعنينا به فأوضحناه من ترجيح علل النحو على علل الفقه وإلحاقها بعلل الكلام لا ندعي انها تبلغ قدر علل المتكلمين ولا عليها براهين المهندسين غير انا نقول ان علل النحويين على ضربين أحدهما واجب لا بد منه لأن النفس لا تطيق في معناه غيره ، والآخر ما يمكن تحمله إلا أنه على تجشم واستكراه له »[2] .

والحق أن ابن جنى قد جاء في هذا الباب بأقوال ونظريات رائعة ولكنه لم يكن في ذلك إلا متقيلاً آثار شيخه الإمام أبي علي الفارسي ، فقد كان رحمه الله شديد الميل الى تقعيد قواعد العربية ، وتنظيم علم أصول لها ، وضبط أقيستها وعلى غراره نشأ تلميذه ، فنظم تلك القواعد ورتبها وتعمق في البحث أكثر من أستاذه وقد ذكر في الخصائص بعد أن أورد بعض مسائل القياس في العربية وقال : « فإن معرفة هذه الحال فيه أمثل من معرفة عشرة أمثال لغته وذلك ان مسألة واحدة من القياس أنبل وأنبه من كتاب لغة عند عيون الناس ، قال لي أبو علي رحمه الله بحلب سنة ست وأربعين : أُخطئ في خمسين مسألة

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٤٦ والطبعة الثانية ١ / ٤٨

(٢) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٩٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في اللغة ولا أخطئ في واحدة من القياس »(١) فهذا يدلنا على شدة عناية أبي علي الفارسي بالقياس وضبط القواعد وتقنين قوانين اللغة العربية ، وهو يرى أن جهله بالمسائل اللغوية أو خطأه فيها أمر لا بأس عليه منه أما جهله بالقياس وتخليطه فيه فأمر لا يصح التساهل فيه والوقوع فيه .

ومن ذلك وضع كثير من قواعد علم فقه اللغة: فان علم فقه اللغة ، وهو الذي اصطلح المحدثون اطلاقه على علم الفيلولوجيا « Philologie » ، هو علم محدث في اللغة العربية لم يكتب فيه أحد من الأقدمين العرب ولا المحدثين إلا بعد أن اتصلوا بالثقافات الغربية الأوربية .

على ان علماء اوربة المحدثين يختلفون في مدلول هذه الكلمة فمنهم من يذهب الى ان هذا العلم هو مجرد علم قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية ومنهم من يذهب الى أنه ليس إلا درس اللفظ ومناقشة أحواله وأوضاعه ، ولكنه درس شامل للحياة العقلية اللغوية من جميع وجوهها ، واذا صح هذا فمن الممكن ان تدخل في دائرة علم الفيلولوجيا كافة فنون اللغة المختلفة من تاريخ اللغة ، ومقابلتها باللغات الشقيقة والبعيدة ، ودراسة النحو ، والصرف ، والعروض ، وعلوم البلاغة ، وعلم الأدب بمعناه الواسع ، فيدخل فيه إذن تاريخ الأدب الخاص ، وتاريخ العلوم من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه اللغوي من حيث تدوين اللغة في المجاميع والمعاجم ، كما يدخل فيه تاريخ الدين من حيث درس الكتاب المقدس ، والكتب الدينية الأولى ، وكتب علم الكلام ، ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذي نشأت فيه تلك الآثار الأدبية(٢) .

ولا شك عندنا في أننا اذا تتبعنا ما كتبه أبو الفتح بن جني في (سر الصناعة) و (الخصائص) و (شرح تصنيف أبي الحسن) وجدناه يحاول محاولات صادقة في وضع

---

(١) الخصائص الطبعة الأولى ١ / ٤٨٢

(٢) راجع النثر الفني لزكي مبارك ٢ / ٣٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أسس علم الفيلولوجيا العربية أو علم فقه اللغة كما يسميه بعض العلماء المحدثين .

والحق أن ابا الفتح كان له نصيب وافر في ايجاد علم فقه اللغة العربيـة من ناحية دراسة اللغة العربية ، والبحث في أصول مفرداتها واشتقاقها ، ودرس قواعدها ونقد نصوصها الأدبية وآثارها اللغوية ، والدينية ، مع ملاحظة كثير من الأسباب العقلية التي عملت في تكوين هذه اللغة وتطور مفرداتها .

وقد حاول في عصر (ابن جني) وبعده بقليل جماعة من أئمة النحاة والصرفيين ان يسيروا في السبيل التي سار عليها إلا انهم لم يوفقوا ولم يستطيعوا ان يتمموا ما بدأ هو به ، فقد أراد الإمام اللغوي ابو الحسين احمـد بن فارس الرازي النحوي (– ٣٩٥) أن يؤلف في هذا الموضوع كتاباً فألف كتابه المعروف (بالصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) ، ولكن كتابه هذا خرج وكأنه ككتب الأقدمين ، أو كأنه أقرب الى كتب اللغة منه الى كتب فقهها وعلم أسرارها .

أما ابن جني فانه ألف كتبه في صلب هذا العلم الذي يبحث عن نشأة الألفاظ العربية والوقوف على أسرارها وطرق توليدها وتفريعها وتقلبها .

وصفوة ذلك رأيه في نشأة اللغات : فقد ذهب كثير من العلماء القدماء وبعض المحدثين الى ان اللغات توقيفية ، بمعنى ان الله سبحانه أوحى بها الى أنبيائه وأوقفهم على مفرداتها كلمةً كلمةً ثم انهم علموها لتابعيهم ، وقال آخرون : بل إن اللغات مشتقة من أصوات الحيوانات والطبيعة وان الانسان الأول قد حاكى هذه الحيوانات وتلك الطبيعة واشتق من ذلك ما أعانه على تفهيم مراده لسامعيه . وقال فريق ثالث : بل ان اللغات انما اخترعها الانسان بمحض تفكيره وخالص إرادته ، وانه تواضع عليها كأن يجتمع اثنان أو أكثر فيحتاجون الى تسمية بعض الأشياء فيتفقون فيما بينهم على التسمية وتنتشر بعدئذ .

وقد ذهب كثير من علماء المسلمين القدماء الى القول الأول مستدلين على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذلك بالآية الكريمة التي قالها الله تعالى حكاية عن آدم عليه السلام وهي : «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة» [1] وقالوا إن معنى هذه الآية هو أن الله تعالى علم آدم أبا البشر جميع الألفاظ في جميع اللغات وان آدم علمها أبناءه فتناقلوها من بعده وهكذا اختلفت لغات سكان الأرض . وهو قول عجيب غريب لا نرى في الرد عليه أبلغ مما سمعناه من أستاذنا المرحوم العلامة الشيخ احمد الاسكندري في بعض محاضراته التي ألقاها علينا في كلية الآداب بالجامعة المصرية في سنة ١٩٤٨ فقد قال : إن البداهة تقضي ببطلان هذا القول ، فان شهادة العقل والاستقراء وتتبع نطق الأطفال تشهد بأن اللغة تتدرج وتنمو بحسب الحاجة اليها . فلا يصح أن يقال إنها كلها قد وجدت دفعة واحدة وما ذهب اليه شيخنا الاسكندري هو الصحيح الذي قال به ابن جني وتوصلت اليه اليوم مباحث علماء فقه اللغة وعلماء الاجتماع وهو ان اللغات هي كائنات حية تعيش كما يعيش كل حي ، وتموت كما يموت ، وان منشأها الأصوات الأولى ، ولم يقل العلماء قولهم هذا إلا بعد التجربة العلميه والدراسة العميقة وبعد أن ذهبوا بأنفسهم الى مواطن الشعوب البدائية في القارات والجزر النائية واتصلوا بأفراد هذه الشعوب وعاشوا معهم فترة من الزمان وتأملوا أقوالهم وعاداتهم وتكبدوا كثيراً من المتاعب والمشقات في سبيل جمع معلوماتهم ، وما كانوا يشعرون بقيمة لمعلوماتهم إلا اذا توفروا على جمعها بأنفسهم عن طريق الملاحظة المباشرة والتدقيق فيما جمعوه وتصنيفه ومقارنته باللغات الحية وتحديد أوجه الشبه وأوجه الخلاف والمفارقات بين اللغات مما أداهم الى هذه النتيجة [2] .

---

(١) يشبه هذا ما نجده في سفر التكوين ، الاصحاح الثاني رقم ١٩ — ٢٠ : «وجبل الرب الاله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية واما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره» .

(٢) للتوسع في هذا راجع ترجمة (المدخل الى علم الاجتماع) تأليف مونييه الفرنسي طبع مصر ص ٦٩ و ٨٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما ابن جني فقد ذهب الى هذا القول منذ أكثر من ألف سنة فقد قال في الفصل النفيس الذي عنونه بقوله (باب القول عن أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح : هذا موضع محوج الى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على ان اللغة انما هي تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف إلا أن أبا علي رحمه الله قال لي يوماً : هي من عند الله واحتج بقوله تعالى : «وعلم آدم الأسماء كلها» وهذا لا يتناول موضع الخلاف وذلك انه قد يجوز ان يكون تأويله ، اقدر آدم على ان واضع عليها ، وهذا المعنى من عند الله لا محالة .... والقديم سبحانه لا يجوز ان يوصف بأن يواضع أحداً من عباده على شيء إذ قد ثبت ان المواضعة لا بد معها من إيماء واشارة بالجارحة نحو المومأ اليه والمشار اليه والقديم سبحانه لا جارحة له فيصح الايماء والإشارة بها منه .. وذهب بعضهم الى ان أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولّدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل[1] .

مذهبه في علم اللغة :

كانت دراسات علم اللغة قبل مجيء أبي الفتح محصورةً بطريقة من الطرائق الأربع التالية وهي الإملاء ، والإفتاء ، والتعليم ، والرواية . وقد وصف لنا الجلال السيوطي ترجمة طريقة الأقدمين هذه فقال : «وظائف الحافظ في اللغة أربعة أحدها وهي العليا (الإملاء) كما ان الحفاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء وقد أملى حفاظ اللغة من المتقدمين الكثير فأملى ثعلب مجالس

(١) الخصائص الطبعة الثانية ١ / ٤٦ – ٤٧ . ولنلاحظ ان ابن جني بعد ان قال بهذا القول في أصل نشأة اللغات رجع عن رأيه هذا في اللغة العربية خاصة وله في ذلك حجج فارجع اليه اذا شئت في آخر الفصل القيم الذي عنوانه «باب القول على أصل اللغة» من الخصائص الطبعة الثانية ص ٤٠ وما بعدها .

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عديدة في مجلد ضخم وأملى ابن دريد مجالس كثيرة ٠٠٠٠ وطريقتهم في الاملاء كطريقة المحدثين سواء يكتب المستملي أول القائمة : مجلس املاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ويذكر التاريخ ثم يورد المملي باسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج الى التفسير ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية باسناد وغير اسناد ما يختاره وقد كان هذا في الصدر الأول فاشياً كثيراً ثم ماتت الحفاظ وانقطع املاء اللغة من دهر مديد ٠٠ والوظيفة الثانية (الافتاء) وليقصد التحري والإبانة والإفادة والوقوف عند ما يعلم وليقل في ما لا يعلم ـ لا أعلم ـ واذا سئل عن غريب وكان مفسراً في القرآن فليقتصر عليه ٠٠٠٠٠ والوظيفة الثالثة والرابعة : (الرواية والتعليم) ومن آدابها الاخلاص وان يقصد بذلك نشر العلم وإحياؤه والصدق في الرواية والتحري والنصح في التعليم والاقتصار على القدر الذي تحمله طاقة المتعلم[١] » ٠

وكان العلماء المتقدمون قبل ابن جني يوردون معلوماتهم اللغوية إيراداً غير منظم لا رابط بها إلا قليلاً وكان اهتمامهم مصبوباً الى الجزئيات أكثر منه الى الكليات بل كان قليل منهم من يعنى بالاهتمام بالكليات والضوابط العامة وكانوا يتبعون الطرق التي أشار اليها السيوطي في مزهره فيملون معلوماتهم عن اللغة وعن مفرداتها مفردة مفردة كالذي نجده في كتب المبرد (ـ ٢٨٥) وكتب الأصمعي (ـ ٢١٦) بل وكتب أبي علي القالي (ـ ٣٦٥) وهي كتب تشتمل على كثير من أخبار العرب ٠ ومباحث الأدب وقصص التاريخ والمفردات اللغوية ، وقد ظل هذا الحال حتى أطل القرن الرابع للهجرة فأخذ علماؤه من شيوخ ابن جني وطبقته يعمدون الى تنظيم مباحث علم اللغة وشعروا بضرورة تنظيم المباحث اللغوية تنظيماً يعتمد على المنطق والترتيب وهكذا (فتح القرن الرابع للهجرة فتحاً جديداً في كل من الناحيتين الرئيستين لعلوم اللغة العربية وهما

(١) المزهر للسيوطي ٠ طبع القاهرة سنة ١٢٨٢ ، ٢ / ١٦٢ - ١٦٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(النحو) و (عمل المعاجم) وقد تخلص علم اللغة كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية)(١) ٠

والحق أن القرن الرابع كان مبدأ تطور عام لا في علوم العربية بل في سائر علوم الاسلام ٠ أما ما يتعلق بعلوم العربية وبعلم اللغة خاصة فقد أخذ علماء هذا القرن يسيرون على الخطة التي كان الخليل بن احمد (ــ ١٧٠) قد بدأ بها ولكن أحداً من علماء عصره أو الذين جاءوا بعده لم يتمّها الى ان كان القرن الرابع ، ولا شك في ان اطلاع هؤلاء الأئمة على طرائق العلماء الأقدمين من يونان وسريان وروم قد كان له بعض تأثير في تطور هذا العلم في القرن الرابع ، حتى أصبحنا نجد هذه الأبحاث اللغوية تدور في مجالس بعض الأمراء كعضد الدولة البويهي (ــ ٣٧١) قال الأستاذان ميتز وريشر : إن أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري قد شعروا بالحاجة الماسة الى منهج يسيرون عليه والى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة ، وقد كان لمعرفة العلماء العرب المحدثين بعلوم اليونان اللسانية اثر كبير في ذلك ، وكان البحث يدور في مجالس عضد الدولة حول الفرق بين النحو العربي والنحو اليوناني وأصول استنباطها ٠ وقد ميز أبو سليمان السجستاني النزعة الجديدة في النحو بأن قال : (نحو العرب فطرة ونحونا فطنة) [راجع أخبار العلماء للقفطي ٠ طبع اوربا ص ٢٨٣] وإذا وجدنا ابن فارس (ــ ٣٩٥) يؤلف لأول مرة مقدمة في النحو فينبغي ألا نرى في هذا سوى وليد للمقدمات (الايساغوجي) التي كتبها علماء اللغة اليونانية ٠ وأكبر ما تم على أيدي علماء اللغة هو تحديد معاني الكلمات وعمل المعاجم ونجد ههنا حداً واضحاً يفصل بين عهدين وطريقتين وكان حمزة الاصفهاني (ــ ٣٥٠ أو ٣٦٠) خاتمة اللغويين القدماء الذين كانت كتبهم لا تشتمل إلا على عبارات للخطباء والبلغاء الذين ألفوا كتباً من المترادف وأخرى يستعين بها الخطباء في الخطبات ففي كتاب الموازنة مثلاً

(١) آدم ميتز في (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع) ترجمة الدكتور عبد الهادي ابو ريده ص ٣٨٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذكر أربعمائة كلمة في معنى (الشقي) وكذلك جمع في كتاب الأمثال أكثر ما يعرض في لغة الخطباء من عبارات المفاضلة نحو : أبيض من الثلج ، وأجشع من الفيل .. وقد كان جمعه وافياً بحيث لم يضف علماء القرون التالية شيئاً اليها ، وكان سلفه قد جمع من هذه العبارات ثلاثمائة وتسعين فجمع هذا ألفاً وثمانمائة ... وكذلك ظهرت في القرن الرابع دراسة جدية للاشتقاق اللغوي وبقيت عصراً طويلاً وكان أستاذ هذه الدراسة ابن جني الموصلي (— ٣٩٢) .. وهو الذي ينسب اليه ابتداع مبحث جديد في علم اللغة وهو المسمى بالاشتقاق الأكبر وهو البحث الذي لا يزال يؤتي ثمره الى اليوم والذي يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ولم يكن لعلماء اللغة من العرب انتاج أعظم من هذا وقد كان ابن جني معتزاً بنظريته هذه (١) .

والحق أن عمل ابن جني في الاشتقاق الأكبر ، والتراكيب اللغوية ، والمباحث الكلامية ، والدراسات الصرفية التي خلفها في كتبه العديدة التي سنعرض لها في آخر هذه المقالات ، هو العمل الجدي المثمر الذي طوّر مباحث اللغة وجعل لها أسلوباً جديداً انتظم أمره بابن جني ولكن أحداً من العلماء بعده لم يتمم ما بدأ به .

مذهبه في النحو :

انقسمت مذاهب النحو الى اربع مدارس رئيسة هي : مدرسة أهل البصرة ومدرسة أهل الكوفة ، ومدرسة أهل بغداد ، ومدرسة أهل الأندلس . وأصل هذه المدارس وأولها مدرسة أهل البصرة ؛ ففي هذه المدينة نشأ علم النحو العربي ، ومؤرخو الآداب العربية يختلفون في أولية وضع النحو العربي بين أربعة من أهل العلم هم : الامام علي بن أبي طالب عليه السلام ، وأبو الأسود الدؤلي ، ونصر بن عاصم الليثي ، وعبد الرحمن بن هرمز .

(١) راجع المصدر السابق ص ٣٨٧ ، ٣٩١ وراجع بحث الأستاذ O. Rescher في كتابه عن الامام ابن جني ص ٢٠ Studien uber Ibn Ginni - Z. A. 1909

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما الامام علي : فأقدم من نَسَبَ اليه ذلك هو أبو العباس المبرد (— ٢٨٥) حيث يقول : « أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود وسئل عمن أرشده الى الوضع في النحو فقال تلقيته عن علي » [١] . ويقول ابن النديم (— ٣٨٥) : « وزعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه » [٢] .

وأما أبو الأسود (— ٦٩) فقد أجمع كل من كتب في تاريخ النحو على نسبة وضع هذا العلم اليه ، وأول من ذكر ذلك هو محمد بن سلاّم الجمحي (— ٢٣٢) فقد ذكر في مقدمة كتابه طبقات الشعراء ما يلي : « وكان أول من أسس العربية وفتح بابها ونهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي .... ووضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم » [٣] . وجاء بعد ابن سلاّم الامام ابن قتيبة (— ٢٧٦) فقال : « ... لأنه أول من عمل في النحو كتاباً » . وجاء بعد ابن قتيبة أبو العباس المبرد (— ٢٨٥) فقال : « ... أول من وضع العربية ونقط المصاحف ابو الأسود الدؤلي » . وجاء بعد المبرد ابن النديم صاحب الفهرست وقد رأيت قوله فيما سبق ، ثم تتابع المؤرخون بعدهم ينقلون أقوالهم .

وأما نصر بن عاصم (— ٨٩) فقد كان فقيهاً وعالماً بالعربية وفصيحاً بارعاً ، تعلم من أبي الأسود الدؤلي وروى عنه القرآن الكريم قال ابن النديم في الفهرست : « وقال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلي ويقال الليثي » [٤] . وقال ياقوت : « أول كتاب وضع في النحو على التحقيق هو كتاب نصر بن عاصم » [٥] .

(١) أورد هذه العبارة ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (— ٣٥٠) في كتابه طبقات النحاة . وهو مخطوط في خزانتنا

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٥٩

(٣) الشعر والشعراء طبعة البابي الحلبي ٢ / ٧٠٧

(٤) راجع تاريخ علوم اللغة للمرحوم الأستاذ الجليل طه الراوي ص ٧٦ وما بعدها .

(٥) ارشاد الأريب في ترجمة نصر بن عاصم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان نصر هذا من نبهاء أصحاب أبي الأسود وتلاميذه وهو الذي روى عنه صحيفته في العربية وهي المعروفة (بالتعليقة) حتى قال بعضهم : إن أول اسناد علمي عرف في الأدب هو اسناد نصر الى أبي الأسود في تعليقته هذه . وقد ألف نصر في العربية كتاباً لم يصل الينا [1] .

وأما عبد الرحمن بن هرمز (— ١١٧) فقد كان أحد القراء العلماء بالعربية والأنساب ، وقد قيل في ترجمته إنه أول من ألف في النحو . وكان من تلاميذ أبي الأسود وأصحابه أيضاً . قال الزبيدي : كان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش .

والذي نراه في هذه القضية ان أبا الأسود هو الذي وضع أسس هذا العلم ولعله أطلع الإمام علياً على ما أراد أن يضعه أو أنه فعل ذلك الوضع برأي الإمام وتوجيهه . وأما عمل نصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز فهو قيامهما باتمام ما بدأ به أستاذهما أبو الأسود ، ويقال ان نصراً هو الذي قام بتمييز الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء والنون والياء ، والصاد والضاد والطاء والظاء وما يشبه ذلك . كما يقال ان عبد الرحمن هو الذي رتب ما تلقاه من شيخه أبي الأسود وألفه في كتاب ، وخصوصاً إذا عرفنا أن نصراً وعبد الرحمن قد عاشا طويلاً بعد أستاذهما فكان طبيعياً ان يكملا ما بدأ به .

وصفوة القول ان أبا الأسود هو الذي وضع أساس بناء النحو في البصرة وذلك بأن ضبط قراءة القرآن الكريم [2] ثم وضع بعض القواعد العامة المتعلقة بالمرفوع والمنصوب والمجرور أو ما أشبه ذلك .

هذا ما نرتأيه في المقدار الذي ساهم به أبو الأسود وأصحابه في وضع العربية أما ما يقال من أنهم وضعوا أبواب النحو ، كما تذكر ذلك بعض المصادر العربية

---

(١) راجع تاريخ علوم اللغة للمرحوم الأستاذ الراوي ص ٧٦ وما بعدها

(٢) راجع نزهة الألباء لابن الانباري ص ١١

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القديمة ، وأنهم قسموا الكلمة الى اسم وفعل وحرف وذكروا النواصب والجوازم ، وبوّبوا النحو وغير ذلك فأمر يستبعد وقوعه في ذلك الزمن المبكر ، ولكن الذين بحثوا في هذه الموضوعات وبوّبوا النحو ، هم رجال الطبقة الثانية التي جاءت بعد أبي الأسود وتلاميذه في القرن الثاني للهجرة أمثال عبد الله بن ابي اسحق الحضرمي ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن احمد ، وعيسى بن عمر الثقفي . فقد كانت البصرة بيئة عربية لقربها من المربد الذي كان يقصده عرب البادية العربية يتبارون ويتناشدون الأشعار حتى غدا أجلّ سوق للعرب في الجاهلية والاسلام. وكان هؤلاء العلماء البصريون أصحاب قياس وتقنين يحاولون ضبط أساليب اللغة بالقواعد المنطقية التي أفادوها من الاطلاع على المنطق اليوناني، الذي ترجم في عصرهم . وكانوا حريصين على القياس وطرد القواعد واهمال كل ما يخالف أقيستهم ونظرياتهم اللغوية التي وضعوها مستنيرين بالعقل السليم والمنطق الصحيح ، والفلسفة اليونانية حتى قال صاحب الانصاف : « إنهم بنوا كلامهم من اعتبار حكم المشاكلة والمحافظة على أن تجري الأبواب على سنن واحد ، وقالوا ألا ترى انهم حملوا المضارع على الماضي اذا اتصل به ضمير جماعة النسوة نحو تضربن وحذفوا الهمزة من اخوات أَكْرَمَ نحو تكرم ويكرم ، والأصل فيها نؤكرم وتؤكرم ، يؤكرم كما قال : فانه أهل لأن يؤكرما

وكذلك حذفوا الواو من اخوات يَعِدُ نحو أعد ، وتعد ، ويعد ، والأصل أوعد ، ويوعد ، وتوعد ، حملاً على يَعِد ، كل ذلك لتحصيل التشاكل والفرار من نفرة الاختلاف [1] » .

مدرستا البصرة والكوفة :

يوجب البصريون سير اللغة في سبيل واحدة متشابهة متشاكلة لا شذوذ فيها ولا اختلاف وهم يشبّهون القياس النحوي بالقياس الفقهي ويقولون لا بد لكل

(١) الانصاف ص : ٣ — ٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قياس من أركان أربعة : أصل وفرع وعلة وحكم ، ويقولون قد يخرج على القياس شيء من كلام العرب ولكنه يظل مسموعاً ولا يقاس عليه غيره ، ويقولون : يُحمل الأقل والأندر على الأعم الأكثر ، وهذا أولى من حمل الأعم الأكثر على الأقل الأندر(١) ، ويقولون : لا بد لكل أمر من دليل وعلة ، ويقولون : لكل قاعدة أصل ولا يصح العدول عن هذا الأصل ، ومن عدل عن الأصل بقي مرتهناً باقامة الدليل(٢) .. وما الى ذلك من القواعد والأصول والأقيسة التي تعتمد على علمي المنطق والأصول ، ونظريات الفلسفة .

وأما مدرسة الكوفة فقد كانت مدرسة تميل الى التوسع وعدم التقييد وكان رجالاتها يعتمدون على سعة روايتهم وكثرة محفوظهم كما كانوا لا يتقيدون بالقواعد النحوية ، ويقولون ان كثيراً مما نظن انه شاذ عن الأسلوب العربي لمخالفته الأقيسة انما هو صحيح ... فمذهبهم أقرب الى السليقة منه الى الصنعة ولعل سبب ذلك هو انهم كانوا يعتمدون على المعين الأدبي الذي تدفق عليهم أكثر من اعتمادهم على المنطق اليوناني وتعقيداته ، وعلى الفلسفة وقواعدها كما كان يفعل رجال المدرسة البصرية الذين أغرقوا في الاعتماد على نحو السريان ، وعلوم اليونان ، وثقافات الفرس ، على عكس الكوفيين الذين كانوا أميل الى الانطلاق عن كل هذه القيود .

وأوائل من عرف من الكوفيين بالاهتمام بالعربية جماعة منهم :

أبو معاوية شيبان بن عبد الرحمن التميمي (— ١٦٤) الامام النحوي المقرئ المؤدب الذي كان من كبار رجال علم القرآن والحديث والعربية ، ولد في البصرة ولكنه أقام في الكوفة وتعلم على رجالاتها وروى القرآن عن عاصم بن بهدلة ابن أبي النجود الأسدي الكوفي إمام القراء وأحد القراء السبعة ، وقرأ العربية

(١) الانصاف ص : ٢٧٧

(٢) الانصاف ص : ١٣٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على أبي عمرو بن العلاء وطبقته ٠٠ وروى عنه الحسين بن علي الجعفي الكوفي الامام الزاهد وأحد أعلام القراءات ٠ وله كتاب في الحديث ، وقصد في آخر عمره بغداد وفيها مات [1] ٠

وأبو مسلم معاذ بن مسلم الهرّاء (— ١٨٧) مؤدب عبد الملك بن مروان ، وشيخ أبي الحسن الكسائي إمام نحاة الكوفة ، وأبي جعفر الرؤاسي أول من صنف من أهل الكوفة وكان الهراء من أئمة النحاة الرواة ، أخذ عن الامام جعفر الصادق ، وكان صديقاً للكميت الشاعر ، وله شعر لا بأس به ، وقد عمّر طويلاً ، قال ابن خلكان : قرأ على الكسائي وروى عنه وصنف في النحو كثيراً وكان يتشيع ، وله شعر كشعر النحاة وكان في عصره مشهوراً بالعمر الطويل ، وكان له أولاد وأولاد أولاد فمات الكل وهو باقٍ [2] ويقول ابن الأنباري في النزهة : وقيل إنه كان يكنى أبا علي وهو من موالي محمد بن كعب القرظي ، وهو عم أبي جعفر الرؤاسي ٠٠٠ ولا مصنف له يعرف ٠

وأول من عرف من الكوفيين بالتصنيف والبحث عالمان جليلان هما :

أبو جعفر الرؤاسي محمد بن الحسن بن أبي سارة النيلي النحوي (— ١٩٠) وقد تلقى العلم عن عمه معاذ بن مسلم الهرّاء وعن أبي عمرو بن العلاء ، وعيسى ابن عمر الثقفي ، وكان بارعاً بالنحو والصرف والقراءات ، وكانت له اختيارات في القراءة والوقوف ٠ وقد روى عنه يحيى بن زياد الفراء ، وخلاّد بن خالد الصيرفي ، وعلي بن حمزة الكسائي [3] ٠ وكان سيبويه يجله ويثق بعلمه وكلما قال في كتابه (قال الكوفي) عناه ٠ قال ابن درستويه : زعم أبو العباس

(١) راجع تهذيب التهذيب ٤ / ٣٧٣ ، وغاية النهاية لابن الجزري ١ / ٣٢٩ وتاريخ علوم اللغة للراوي ص ١٢٢

(٢) راجع بغية الوعاة للسيوطي ص ٣٩٣ ، ونزهة الالباء لابن الانباري ص ٦٤ والكنى والألقاب للقمي ٣ / ٢٣٩

(٣) انظر النهاية لابن الجزري ٢ / ١١٦ والبغية ص ٣٣ والنزهة ص ٦٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

احمد بن يحيى ثعلب : إن أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو الرؤاسي والفراء . وقال الفراء : لما خرج الكسائي الى بغداد قال الرؤاسي قد خرج الكسائي الى بغداد وأنت أميز منه فجئت الى بغداد فرأيت الكسائي فسألته عن مسائل الرؤاسي فأجابني بخلاف ما عندي فغمزت قوماً من علماء الكوفيين فكانوا معي فقال : مالك قد أنكرت لعلك من أهل الكوفة ، فقلت : نعم فقال : الرؤاسي يقول كذا وكذا وليس صواباً ، وسمعت العرب تقول كذا وكذا حتى أتى على مسائلي فلزمته . وقال الرؤاسي : أرسل إليّ الخليل بن احمد يطلب كتابي فبعثته اليه فقرأه ووضع كتابه[1] ويقال لكتابه (الفيصل) . وقال المبرد : عرف الرؤاسي بالبصرة وقد زعم بعض الناس أنه صنف كتاباً في النحو فدخل البصرة ليعرضه على أصحابنا فلم يلتفت اليه ولم يجسر على إظهاره لما سمع كلامهم . وقد ألف الرؤاسي كتباً عديدة منها (الفيصل) و (معاني القرآن) و (التصغير) . و (الوقف والابتداء الكبير) و (الوقف والابتداء الصغير) وقد ضاعت هذه الآثار كلها فيما أعلم .

والكسائي الامام علي بن حمزة بن عبد الله بن بهرام (— ١٨٩) وكان شيخ الكوفة الأعظم وموطد قواعد مذهبها في النحو والقراءة ، وهو أحد القراء السبعة المشهورين ، قرأ على حمزة ثم اختار لنفسه قراءة ، وسمع العلم من سليمان بن أرقم ، وأبي بكر بن عياش ، وسفيان بن عُيينه ، وتعلم النحو من الرؤاسي ومعاذ الهراء ولزمه حتى انفد ما عنده ، ثم خرج الى البصرة فلقي الخليل وجلس في حلقته فقال له رجل من الأعراب تركت أسداً بالكوفة وتميماً وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة !! ثم انه قال للخليل : من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة فخرج ورجع وقد أنفد خمس عشرة

---

(١) انظر ارشاد الأريب ٢ / ١٣٨ والبغية ص ٣٥ والنزهة ص ٦٦ والمزهر ٢ / ٢٠١ وطبقات الزبيدي ص ٦١ وبركلمان C. A. L. ١ / ١١٥ والذيل ١ / ١٧٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ ، وقدم البصرة فوجد الخليل قد مات ، وفي موضعه يونس بن حبيب فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدّره في موضعه . قال ابن الاعرابي : كان الكسائي أعلم الناس ضابطاً عالماً بالعربية قارئاً صدوقاً إلا أنه كان يديم شرب النبيذ . وقال ابن درستويه : «كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه ما أفسد النحو بذلك[1]» . ولا شك في ان ابن درستويه إنما قال ذلك بعقلية نحاة البصرة المنطقيّين المتشددين . وقد نبغ من تلاميذه ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ، وأبو عبيد القاسم بن سلاّم . وله كتب كثيرة ذكرها الخطيب البغدادي في ترجمته والزبيدي في طبقاته وياقوت في معجمه ، وابن خلكان في وفياته ، واحمد امين في ضحى الاسلام . ولم يبق من هذه الكتب إلا رسالة في (لحن العامة) وكتاب (المتشابه في القرآن)[2] .

ويلي الكسائي عند الكوفيين تلميذه يحيى بن زياد بن عبد الله بن الفراء (— ٢٠٨) الذي تصدر في الكوفة بعد أستاذه الكسائي . قال ثعلب : لولا الفراء لما كانت اللغة لأنه حصلها وضبطها ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد ويتكلم الناس مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب وأمره المأمون أن يجمع أصول النحو وما سمع من العرب فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار ووكل بها جواري وخدماً للقيام بما يحتاج اليه . . . حتى حققت (الحدود) وأمر المأمون بكتبه في الخزائن . وكان أعلم الكوفيين بعد الكسائي ، وكان يميل الى الاعتزال ، زائد العصبية على سيبويه وقد ألف عدة

---

(١) راجع البغية ص ٣٣٦ والنزهة ص ٨١

(٢) راجع بروكلمان G. A. L. ١ / ١١٥ والذيل ١ / ١٧٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتب ذكرها الخطيب البغدادي ، وياقوت ، والسيوطي ولم يبق منها إلا كتاب (معاني القرآن) و (الفاخر) في الأمثال و (المقصور والممدود) و (المذكر والمؤنث) و (الأيام والليالي)[1] .

هؤلاء هم أئمة المدرسة الكوفية التي كانت في أول أمرها بعيدة عن طريق المناطقة والفلاسفة ولكنها لم تلبث في عهد الفراء أن تأثرت بالمنطق والقياس على طريقة أهل البصرة ولكنها لم تغال غلو أهل البصرة[2] .

(للبحث صلة) الدكتور محمد أسعد طلس

---

(١) راجع بروكلمان G. A. L. ١ / ١١٦ والذيل ١ / ١٧٨

(٢) راجع الانصاف طبعة بريل ص ٤٥ ، وتاريخ علوم اللغة للراوي ص ١٢٢

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net